◆ مقدمة ◆

من الحقائق الواضحة أن للقادة دورهم المتميز في صناعة التاريخ، بما وهبهم الله من موهبة خاصة، وقدرة متفردة تميزوا بها عن سائر الناس. فالبشرية تحتفظ في تاريخها الطويل بقائمة طويلة لأشخاص أثروا في مسار التاريخ، وساهموا في صناعة مراحل مهمة منه، ورسموا أبعاد الحقب اللاحقة بأعمالهم البارزة. ونظرًا لأهمية الأفراد الأفذاذ في المسيرة التاريخية للشعوب والمجتمعات، فقد شاع في الكثير من الدراسات استخدام اصطلاح (الدور التاريخي) و(الشخصية التاريخية) و(البطل التاريخي) عند الحديث عن عظماء خالدين وقادة وعلماء أثروا في الحياة البشرية وساهموا في رسم مساراتها، كل في مجاله: السياسي، أو العسكري، أو العلمي، أو الاجتماعي، أو الديني. بحيث صارت خطواتهم، وأفعالهم محل دراسة الأجيال التالية لهم.

والشخصية التي يدور حولها هذا الكتاب، هي شخصية رجل استطاع أن يرتقي من قاع السلم الاجتماعي إلى أن يصبح الحاكم المسيطر في بلد غير بلده، وبين أهل غير أهله، ساعده على ذلك ذكاؤه المتوقد، ونفسه الطموحة ، ومثابرته وكفاحه المتواصل من أجل تحقيق ما تصبو إليه نفسه وما خطط له.

إن جول مازاران الفرنسي الجنسية، الإيطالي الأصل والمولد. رئيس وزراء لويس الرابع عشر، وحامي الملكية، ورجل فرنسا القوي الذي حولها من دولة ضعيفة تأكلها النزاعات والصراعات الدينية، وتنافس النبلاء والإقطاعيين فيما بينهم على السلطة،

وأطماع الدول المجاورة فيها وخاصة إسبانيا، حول بذكائه وطموحه فرنسا إلى دولة مرهوبة الجانب، وسيدة أوربا في القرن السابع عشر.

نجح مازاران في أن يحكم فرنسا وحده، فقد استطاع بقوة شخصيته وذكائه المتوقد أن ينقذ البلاد من خراب مؤكد، كما استطاع بحنكة سياسية، عجز البلاط عن إدراكها في وقتها، أن يترك بين يديّ لويس الرابع عشر دولة تفرض على الدول الأخرى احترامها، وتخشاها أوربا بأسرها.

لقد اختلف المؤرخون حول مازاران، كما هو الشأن حول كل قائد عظيم أو زعيم كبير، البعض رفعه إلى مرتبة أعظم وزير حكم فرنسا خلال ألف سنة!! والبعض الآخر هبط به إلى مرتبة اللصوص والوصوليين، الذي استغل سلطاته لتحقيق أطماعه الشخصية وللإثراء على حساب جوع الشعب وفقره. وبين هؤلاء وهؤلاء يقف مازاران لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فقد ترك أعماله للتاريخ ليحكم عليها، ويقيّمها.

وبما أن القادة أو الزعماء التاريخيين لا يعملون في فراغ، بل هناك أحداث وظروف تؤثر فيهم وعلى قراراتهم، ظروف أثّرت فيهم وأثّروا فيها، وساعدوا بعبقريتهم على تشكيل الأحداث التي مروا بها، من أجل ذلك كان منهجنا في دراسة شخصية مازاران هو عرض الأحداث التاريخية التي سبقته وتلك التي صاحبها بشيء من التفصيل الذي أرجو أن يعذرني فيه القارئ العزيز، ولا يرى فيه إطالة بعيدة عن الموضوع.

إننا إذا نظرنا إلى حياة مازاران وإنجازاته السياسية نرى أنها تركزت في بناء سلطة ملكية مطلقة والقضاء المبرم على سلطة النبلاء والإقطاع، وجعل الملك هو صاحب القرار والمتفرد بالسلطة، هذا الإنجاز لا تدرك قيمته دون معرفة كفاح من سبقوه في تحقيق هذا الهدف، وكيف فشلوا فيما نجح هو فيه، لذا كان هذا التمهيد الطويل لنشأة الدولة الفرنسية، وبداية تكون الملكية، هذه الصفحات من التاريخ التي ربما تكون مجهولة للقارئ العربي غير المتخصص، والاطلاع عليها يعطي قيمة كبيرة لفهم الأحداث التاريخية في الماضي، فمن المعروف أن فرنسا كان لها دور كبير في الحروب الصليبية التي أثرت بشكل كبير على تاريخ المنطقة العربية في القرون الوسطى، بل يمكن القول أنها قامت بالدور الأكبر في هذه الحروب.

نأتى بعد ذلك إلى العمل الأهم والأبرز ، والذي هو جُلُّ اهتمام هذا الكتاب، ألا وهو كتاب (الوصايا السياسية) أو (وصايا للسياسيين) (Brviare de politicians) أو الدليل، كما سماه البعض، الذي تركه مازاران شاهدًا على فكره السياسي وخلقه الاجتماعي، وأسلوبه في حياته وفي تصريف شئونه السياسية، ووضع فيه خلاصة تجاربه السياسية وفكره.

قد تصدم بما جاء في هذا الكتاب من أساليب السياسة والتدبير، فالكثير منها مخالف لما تعارفنا عليه نحن الناس العاديين - فمن منا يرضى بالرشوة، والكذب والنفاق، والتملق، لتحقيق غرض ما؟!

قد يجد البعض أن هناك شبها بين وصايا مازاران، وكتاب الأمير لميكيافيللي، فكلاهما يقوم على مبدأ واحد، وتحكمه ثقافة واحدة.

والكتاب مليء بالأخلاقيات السائدة في ذلك العصر الذي عاشق فيه مازاران، بل والسائدة حتى عصرنا هذا، سواء كانت هذه الأخلاقيات حميدة أم بغيضة.

كما أن هناك مواقف مذكورة في الكتاب يمكن تطبيقها على ما يحدث في عالمنا سواء في الشرق أو الغرب، وذلك رغم مخالفة هذه التصرفات والسلوكيات لما يدعو إليه الدين، أو ما ألفه العرف الاجتماعي، أو الخلق القويم.

من أجل ذلك ومن أجل ما سبق كان تقديم هذا الكتاب، وأترك لك - أيها القارئ العزيز - الحكم على ما جاء في الكتاب ، فالحق واضح أبلج، والباطل ضعيف لجلج، ولا يصعب عليك - بقليل من الفطنة - التمييز بينهما. وبعد ذلك أقول لك إنه يكفينا أن تدرك من هذا الكتاب تلك الأخلاقيات التي تحكم الثقافة الغربية، فهي ليست وليدة اليوم، بل هي عميقة الجذور، متأصلة في النفوس، تحتاج إلى وعي من يتعامل معها، وإلى أن يجيد فنون اللعبة.

خميس حسن